التسلسل : ٢٧ – ٣٠

اسم المادة : تاريخ الدولة الاموية

اسم المحاضرة: انجازات الامويين في مجال الزراعة

ومع ما في تلك المظاهر الجديدة التي استحدثت ايام الخلافة الاموية من نتائج سلبية ادت بمرور الزمن الى ان تتحول الكثير من الاراضي الخراجية الى اراضي عشرية وكذلك تنامي الممتلكات الزراعية والاراضي الزراعية لبعض الافراد على حساب الملاكيين الصغار فانها- اي هذه المظاهر- تؤكد بوضوح على مدى اهتمام الامويين، خلفاء وامراء، المتزايد بالشؤون الزراعية وفي تنمية الموارد القائمة على هذا النمط من الانتاج وفي التاريخ ادلة عديدة تبين بجلاء هذا التوجه والاهتمام بالزراعة وشؤون الارض.

لقد شجع الخلفاء الامويين على توسيع رقعة الاراضي الزراعية المنتجة في اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي وتمثل هذا التشجيع بأوجه متعددة. أهمها

١-العناية بحفر الانهار:

ففي غوطة دمشق مثلا حفر يزيد بن معاوية قناة عرفت باسم نهر يزيد محاولة في اصلاح عملية الري في هذه المنطقة الزراعية المشهورة من بلاد الشام.

ويشير ابن عساكر الى ان الضياع التي كانت في المنطقة التي يجري فيها هذا النهر قد هجرت ولم يبق لها وارث ايام معاوية فاخذها هذا الخليفة، ولما تولى الامر يزيد وجد ان هذه الاراضي الواسعة تنقصها المياة فحفر عند النهر بسعة ستة اشبار

وذكر ابن عساكر ايضا ان مياة نهر بردى في بلاد الشام قد قلت زمن خلافة سليمان الى درجة كبيرة بحيث ادت الى ان يشتكي الناس من خطورة الموقف الامر الذي دفع الخليفة الى ان يبعث الى مولاه عبيده بن اسلم ليكري ماء العين، ويبدو ان مشكلة شحة المياة ظلت قائمة بعد عملية اكراء العين فامر هشام القاسم بن زياد الى ان(يحيز لهم الاناهر فحازها)

٢-استصلاح الاراضي:

كانت عناية الخلفاء الامويين وامرائهم وولاتهم بتحسين مشاريع الري مدفوعة بدافع اقتصادي الى درجة كبيرة وادى هذا بمرور الزمن الى احياء الكثير من الاراضي الموات والاراضي التي هجرها اهلها وتلك التي غطتها المياة فلم تعد صالحة للزراعة، وبذلك فقد ساعدت عمليات حفر الانهار والترع الى اعادة الحياة لهذه الاراضي مما جلب الخير الوفير ان عملية استصلاح الاراضي لاغراض الزراعة لم تكن عملية مقصورة على الخلفاء الامويين وحدهم انما كانت عملية واسعة تمتد جذورها الى زمن الرسول الكريم(ص) والخلفاء الراشدين. فيقول رسول الله(ص) ما نصة (من احيا ارضا مواتا فهي له) و(من اعمر ارضاً ليست لاحد فهو احق بها) وقد اتسع نطاق احياء الاراضي واصلاحها للزراعة ايام الامويين، وصار الخلفاء هم المسؤولون عن منح الاذن للاشخاص الذين يرمون أحياء الاراضي ولمقولة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز اهمية كبيرة في هذا المجال، ويعد امتداد واضحا لنظرية الرسول(ص) والخلفاء الراشدين في احياء الاراضي اذ قال:((من غلب الماء على شيء فهو له)) فمعالجة اي فرد في ازالة المياة عن ارض مغمورة بالمياة واصلاحها بعد ان كانت كذلك اما عن طريق النزح او عن طريق التسهيل حتى ينضب عنها الماء فتكون بذلك المستصلحة لمن يحيها، فحكم هذه الارض حسبما راى الخليفة عمر بن عبد العزيز ان تكون لمن فعل ذلك ونزح المياه عنها.

لقد كانت هناك عمليات استصلاح متعددة في الكثير من المناطق، ارتقى بعضها الى مصاف المشاريع الضخمة لاسيما مشروع اعادة استصلاح البطائح، في حين قد نفذت مشاريع اقل اهمية من ذلك فتذكر الرواية ان الوليد بن عبد الملك اقطع سعيد بن عبد الملك نهره الذي كان ياخذ مياهه من نهر الفرات، وكان في الاصل غيضة فيها سباع فاعطاها اياها فعمرها واستصلحها فصارت تعرف باسمه وصار النهر يعرف باسم((نهر سعيد))

٣- اعمال اخرى:

اهتم الامويون، خلفاء وعمال بشؤون الفلاحين ومتطلباتهم واعتنوا باحوالهم فما يذكر ان الحجاج الثقفي كان دائما يتعقب احوال الفلاحين واحوال الزراعة، فقد كان يكتب الى الخليفة عبد الملك كتباً عن احوال الامطار والزراعة والتفت الى الفلاحين فاقرضهم قروضا وصلت قيمتها الى ميلون درهم تشجيعا لهم للعمل بنشاط اكبر من اجل تحسين الزراعة وتطويرها.

التقدم الصناعي:

في الوقت الذي كانت فيه التجارة تمثل العصب الحيوي للحياة الاقتصادية لاي مجتمع من المجتمعات عن طريقها يتصل هذا المجتمع او ذاك بالبلدان المجاورة وانما العالم الخارجي فتكون بحد ذاتها رافدا لنقل الموروثات الحضارية من هذا المجتمع الى الخارج وبالعكس، فان الصناعة تعد الممون الاساس للتعامل التجاري هذا وهي بذلك تمثل نمطاً حيويا وفعالا للنمو الاقتصادي الانتاجي لاي مجتمع.

غير ان علينا الا نخلط بين الصناعات والثورة الصناعية في العصر الحديث الذي يتيمز بالصناعات الخفيفية والثقيلة وبتشابك العلاقات في المعامل وبكثرة الانتاج وبالتنافس الصناعي بين الشركات والدول، وبين الصناعات قبل حركة التصنيع الحديثة التي تعتمد بالدرجة الاولى على الصناعة اليدوية. والصناعات في العالم الاسلامي ليست استثناء من ذلك.

والصناعات الخشبية قد دخلت هي الاخرى حقل التجارة لما وصلت اليه من تقدم كصنع اواني الطعام الكبيرة وابواب البيوت والصناديق. لحفظ وخزن الاشياء كما كانت الصياغة معروفة اذا اشتهر الصاغة العرب بصياغة حلي الذهب والفضة والنقوش والزينة.

اما صناعة المعادن المختلفة كالجزع والعقيق والنحاس والرصاص والفولاذ فقد قطعوا فيها شوطا بعيدا، وما يقال عن صناعة المعادن يمكن ان يقال عن الصناعة الجلدية فقد برعوا في صناعة الاحذية المختلفة كالخف والنعال.

بخصوص الانسجة والثياب والحياكة فكانوا ينسجون البسط والسجاجيد من الصوف وغزل البرد ونسجها وغزل القطن ونسجه وعرفوا الانسجة الكتانية كالبرجد والعباءة والشملة والانماط وعرفوا الثياب الحريرية والديباج والسندس والاستبرق كما عرفوا ثياب القز وهي ثياب صوف كالمرعزي يخالطها الحرير واستخدموا الاصباغ المتنوعة كالعصفر والدرس والزعفران لصبغ الثياب، كما استخدموا شعر الماعز لصنع الخيام

وكما ان هناك عوامل مشجعة دفعت بعجلة الاحوال الزراعية والتجارية في العالم الاسلامي ابان الخلافة الاموية فان هناك عواملا شجعت اتجاه الناس نحو امتهان الحرف الصناعية اليدوية ونحو تصنيع المنتوجات الزراعية والحيوانية من بينها:

١- التحول الحضري السريع الذي طرا على المراكز التي اسسها العرب خلال مرحلة الفتوحات الاسلامية لاغرا ض عسكرية بالدرجة الاولى ومن بينها البصرة والكوفة وواسط والفسطاط والقيروان والموصل وغيرها وقد جاء هذا على اثر استقرار العرب في هذه المراكز بعد توقف العمليات العسكرية. وكذلك على اثر توافد الكثير من الاقوام غير العربية للاستقرار في هذه المراكز الحضرية والامتهان بشتى المهن والحرف كانت الحاجة ماسة اليها في تسيير الشؤون اليومية الحياتية واخص بالذكر منها حرفة النسيج والحياكة والتطريز والصياغة وصناعة الاصباغ والدباغة والتجارة وصناعة الاسلحة او بالاحرى الصناعة العسكرية والصناعة المعدنية بما فيها صناعة الاواني التي تحتاجها البيوت كالقدور والاكواب والابارق وصناعة الزجاج والزينة وصناعة العطور.

٢- التطور العلمي الذي حصل نتيجة لاستقرار العرب وانصرافهم للتعلم والعطاء والاخذ بما توصل اليه الشرق والغرب والمعروف ان بوادر التفكير الفلسفي قد انطلق في المدن الاسلامية ايام الامويين كما ازداد الاهتمام بمسألة تحويل المعادن الاولية الى معادن ثمينة كالذهب.

والمتفق عليه مثلا ان خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم كان مهتما بترجمة الكتب اليونانية في الطب والكيمياء، لاسيما الكيمياء التي دخلت في صناعة الصناعة العملية للحصول على الذهب، وقد عدة ابن النديم في فهرسته اول من ترجم كتب الطب والنجوم والكيمياء وذكر انه الف كتب عدة في ذلك منها كتاب في الصنعة (الكيمياء).

ومع ان ابن خلدون وقف موقفا متشككاً من انشغال خالد بن يزيد في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الكيمياء عند العرب الا ان المهم في هذه الرواية هو ان العرب بعد استقرارهم التفتوا الى ما توصلت اليه الحضارات القديمة، وليس بعيداً ان يهتموا بعلوم الفلسفة والكيمياء لاسيما وان الفكرة في تحويل المعادن الى الذهب فكرة قديمة حاولوا الوصول اليها.

٣- زيادة الطلب على المنتجات الصناعية المختلفة نتيجة الى تطور المجتمع العربي، فدور الطراز التي اهتم الامويون بتاسيسها دليل واضح على اهتمام الخلفاء الامويين وأفراد عائلتهم والاغنياء بصناعة نسيج الثياب. والطراز كما يقول بن خلدون من ابهة الملك والسلطان فقد كانت ترسم في هذه الدور علامات تختص بالخلفاء والامراء وتطرز على اثوابهم من الحرير والديباج والابريسم وكان ينسج في هذه الدور الاعلام وازياء البلاط وما كان يخلعة الخليفة من خلع وهدايا على الامراء والموظفين الكبار في الدولة وقد شاع استخدام انواع من الملابس كالوشي الذي كان يجلب من اليمن والاسكندرية والكوفة واتخذ الناس منه جلاييب وسراويل وعمائم

المصدر: عبد القادر أفندي بدران، مختصر تاريخ دمشق.